صبري حافظ

القضية الفلسطينية
في كتاب وفيلم ومجلة جنسية

صدر أخيرا في لندن كتاب بالانكليزية بعنوان « الارهاب السياسي في اسرائيل : حالة شوقي الخطيب » (١) . وفي هذا الكتيب مجموعة من الوثائق كنت أتمنى لو استطاعت أن ترى النور على نطاق واسع ، وان يتاح للقارىء الانكليزي العادي أن يقرأ بعضها في صحف الصباح التي تمتلىء صفحاتها بحالات اضطهاد اليهود ومعاناتهم في مختلف بلاد العالم .. لكن اذا اضطهد اليهود الآخرون وعذبوهم فان الصحف تصمت عن جرائم هؤلاء الصهاينة .. مرة اخرى هل نستطيع ان نوقف هذا الانحياز السافر للصهيونية في الاعلام الانكليزي ؟.. يبدأ الكتيب برسالة من شوقي الخطيب المسجون في سجن الرملة الاسرائيلي الى الذين تعاطفوا مع قضيته من الانكليز .. تكشف هذه الرسالة عن نضج تفكير هذا المناضل العربي الشاب وعن فرحته باهمية التحول في رؤية الغرب لاسرائيل وسقوط الاسطورة الاعلامية الزائفة .. يقول شوقي : « في الماضي لم تكن انت وحدك ، بل العالم كله ، لا يعرف شيئا عنا نحن الشعب الفلسطيني .. وكما قلت فقد كانت اسرائيل هي التجسيد لعودة اليهود التي أنبات عنها التوراة .. وكانت اسرائيل بعد ذلك هي « الكيبوتزات » و « الشعب الذي يحارب من أجل البقاء » .. أما نحن .. الشعب الفلسطيني فقد كنا في نظر العالم مجموعة من اللاجئين .. نوع من ضحايا حرب غير منطقية .. أما اليوم ، فقد بدأ العالم يرى ان كل شيء في دولة اسرائيل ليس سليما او نظيفا . لقد استطاع العالم أن يدرك ان هناك شعبا فلسطينيا . مليونان من الفلسطينيين يعيشون اليوم بعيدا عن وطنهم ، ونصف مليون آخر يرزح تحت وطأة الاضطهاد القومي الصهيوني . ومع ذلك فقليلون هم الذين يفهمون الصهيونية حقا في مختلف ابعادها » .. هذا ما يبدأ به شوقي الخطيب رسالته ، ولكن ما لم يقله في هذه الرسالة هو انه هو وأمثاله من المناضلين هم الذين يدفعون اليوم الثمن الباهظ لهذا التحول الذي بدأ يولد والذي يحتاج الى جهود الجميع حتى ينمو ويستمر .. شوقي الخطيب كاي مناضل حقيقي يتمتع بقدر كبير من نكران الذات ، ويهتم بان يشكر مساندية في الغرب لانهم يمنحونه الثقة في الانسان ويساعدونه على الاستمرار في نضاله العادل الطويل . لكن الكتيب بوثائقه المتعددة يحاول ان يقدم للقارىء الغربي بعض ملامح الثمن الفادح الذي يدفعه المناضلون الفلسطينيون واليهود في الدولة العسكرية الصهيونية .

بعد رسالة شوقي الخطيب الى الراي العام الانكليزي يبدأ الكتيب بمقدمة عن الارهاب السياسي في اسرائيل ، يشير فيها الى الكثير من الحالات والى العديد من التقارير الرسمية التي أدانت هذا الارهاب الاسرائيلي وفصلت بعض ملامحه .. مثل تقارير لمنظمة (الصليب الاحمر الدولية) عام ١٩٦٨ و (للامم المتحدة) عام ١٩٧٠ و (لمنظمة العفو الدولية) عام ١٩٧٠ و (للجنة القدس) عام ١٩٧٠ و (لرابطة حقوق الانسان والحقوق المدنية في اسرائيل) عام ١٩٧٠ . ويتحدث فيها ايضا عن حالات اختطاف واختفاء بعض المواطنين العرب بواسطة أجهزة الامن الاسرائيلية . وعن (قانون العودة) المضحك المؤلم معا الذي اصدرته اسرائيل عام ١٩٥٠ والذي اصبح بموجبه من حق اي يهودي أن يحظى بالجنسية الاسرائيلية بمجرد ان يضع قدمه فوق ارض اسرائيل . بينما لا تزال السلطة الصهيونية ترفض ان يعود اي عربي فلسطيني الى أرضه ، بل وتعمل جاهدة ، مستخدمة كل الوسائل غير المشروعة لاجلاء بقية العرب واجبارهم على ترك بلادهم فلسطين . وعن سلسلة المحاكمات السياسية المعروفة باسم حلقات التجسس والتي أجريت في اسرائيل عام ١٩٧٣ وعن منظمة (الجبهة الحمراء) التي اتهمتها اسرائيل بتنظيم حركة للكفاح المسلح ضد الدولة الصهيونية .. وعن (المنظمة اليهودية اليسارية المعادية للصهيونية) .. وعن كثير من الوقائع والجزئيات التي تعد بمثابة تمهيد ذكي لحالة شوقي الخطيب .. يؤكد للقارىء ان ما سيقراه عن عذابات شوقي الخطيب ليس مجرد حالة فردية ، ولكنه جزئية صارخة ضمن عشرات الوقائع والجزئيات .. وحلقة واحدة في كتاب طويل متعدد الصفحات والفصول هو كتاب العذاب والمقاومة الفلسطينية من ناحية .. وهو كتاب العسف والارهاب الصهيوني المتعصب من ناحية اخرى .

ومن صفحات هذا الكتاب يقدم لنا شوقي الخطيب بعض الوثائق.. ومن أبرز هذه الوثائق خطاب المحامية التقدمية فيليسيا لانجر الى ضابط البوليس ساسون في ادارة المهمات الخاصة بالناصرة . تحت عنوان (اعادة الشكوى فيما يتعلق باستجواب شوقي الخطيب) . وفيما يلي ترجمة لهذا الخطاب :

في ٢٥ يناير ١٩٧٣ قابلت في (معتقل ياجور الاحتياطي) المحتجز شوقي الخطيب ، بعد ان فوضني بموجب توكيل موقع منه ، وهو شيء اراد أن يفعله منذ فترة طويلة من الزمن ، للدفاع عنه . وقد سمعت شكايات مرة من موكلي تتعلق بالتعذيب الذي تعرض له اثناء

---

(١) كانت « لجنة العمل الفلسطيني » قد قدمت هذا الكتاب في مؤتمر صحفي عقدته في لندن منذ بضعة أشهر .

الاستجواب . ففي اليوم الرابع من اعتقاله ٨ ديسمبر ١٩٧٢ أحضر مستجوبه الى الزنزانة التي اخذ اليها موكلي كابلا كهربائيا ذا لون ابيض ، كما احضر هراوة تشبه مضرب التنس . واخذ المستجوب (بكسر الواو) الذي لا يعرف موكلي اسمه في تجريد موكلي من ملابسه ثم اخذ يلمس خصيتيه بالكابل الكهربائي .. الذي لم يكن في البداية متصلا بالتيار .. وكان المستجوبون يقولون له : « سوف نقوم باخصائك ، وسوف ينام شخص آخر مع زوجتك » (احب ان اوضح هنا ان اصطلاح (ينام مع) هو تعبيري الخاص ، لان الكلمات القذرة التي استعملها المحققون لا يسمح المجال بذكرها) . وبعد ذلك سمح له المحققون بان يرتدي ملابسه ، ثم اخذوا يضربونه على رأسه بتلك الهراوة . وبعد ان تلقى حوالي ثلاثين هراوة على رأسه اجلسوه على كرسي ، وبدأ المحققون واحد من كل جانب ينتفون شعره حول اذنيه ومن صدغه ومن حاجبيه . وبعد فترة من الوقت جردوه من ملابسه ثانية وقال احدهما للاخر : « هيا .. وصل الكابل بالتيار الكهربائي.. لا بد ان نخصي ابن العاهرة هذا .. فقد وجدنا بالفعل من ينام مع زوجته بدلا منه » .. وعلى كل حال ، لم يوصل الكابل بالتيار وسمح لشوقي بان يرتدي ملابسه مرة اخرى . ثم بدأ المحققون يوسعونه ضربا ولكما في كل انحاء جسمه . وكان الاستجواب يدار بواسطة عدد من المحققين في وقت واحد . كلهم في ملابس مدنية واحدهم ينادي باسم مستعار (ابو جميل) والآخر (ابو عصام) وكانت الاسماء المستعارة تتغير باستمرار ، لدرجة ان موكلي لم يستطع ان يتبين اذا ما كانت هذه الاسماء المستعارة هي اسماء دورية أم اسماء محددة لبعض المحققين .

وفي ٢٦ ديسمبر ١٩٧٢ ، وبعد اعتقال رامي ليفنه ، يقرر موكلي ان فترة المعاملة الوحشية بدأت من جديد . واخذوا يستجوبونه مرة اخرى . وكان المحققون يجذبونه من شعره بينما هو جالس على كرسي حتى يرفعوه من على الكرسي معلقا من شعره بهذه الطريقة ، ثم يتركونه يسقط فوق الكرسي من جديد . وفي مرة اخرى لا يستطيع موكلي ان يذكر تاريخها بالضبط ظلوا يضربونه بهراوة غليظة قصيرة على رأسه حتى أوشك على الاغماء ، ولما كاد يسقط أمسكه محقق آخر ليمنعه من السقوط .

وبعد اعتقال رامي فان المحققين احضروا موكلي الذي كان محتجزا في (عكا) الى (ياجور) في محاولة لحث رامي على الاعتراف الى مستجوبيه . ولما فشلوا في ذلك فقد اعيد مرة اخرى الى (عكا) . وخلال هذه الفترة فان موكلي كان يلكم ويضرب بالعصي والارجل كل يوم بصورة منتظمة .

وفي الاسبوع الاول من يناير أو حول ذلك التاريخ ، فان المحققين قد وضعوا موكلي في زنزانة واحدة مع رامي ليفنه ، كان ذلك في سجن (ياجور) .. وفي احدى الامسيات بين السابعة والثامنة مساء اخذ الى الاستجواب ، وجرده المحققون من ملابسه تماما ، ووضعوه تحت دش وفتحوا الصنبور فتدفق من الدش ماء بارد جدا اغرق موكلي .. وبعد فترة اخذ هكذا الى غرفة اخرى .. حيث عصب المحققون عينيه وهو عار تماما .. واحس بانهم يلصقون شيئا مثل شرائط البلاستيك اللاصقة في قدميه . ثم ما لبث نتيجة لذلك ان احس فجاة بتشنج رهيب واهتز جسمه كله ، وانفتح فمه على آخره كانه يريد أن يصرخ ولكنه لم يستطع . ووجد فمه هو الآخر قد اصيب بصدمة تشنجية مؤلمة . ويعتقد موكلي ان هذه صدمات قد أحدثت بواسطة الكهرباء . وهذه الصيغة من التعذيب ، بما في ذلك حمامات الماء البارد ، قد كررت في تلك الليلة ثلاث مرات .. بينما كان المحققون يقولون لموكلي انهم سوف يواصلون ذلك حتى يوافق رامي ليفنه على ان يتكلم . واثناء الاستجواب ، حاول موكلي ان يحتج على ما يفعله المحققون به فاجابوه : « نحن برلمانك .. ونحن قضاتك .. ونحن الهك » .. وأخذ احدهم قطعة من الورق وسحقها في يده ثم القاها في سلة المهملات وقال لموكلي : « هذا هو القانون.. بالنسبة الي » .

وقد هدد موكلي بان ضررا بليغا سوف يلحق به اذا ما فتح فمه او اشتكى مما جرى له . ولا يزال موكلي يعاني حتى اليوم من آلام في صدره نتيجة البرد الذي أصابه من جراء حمامات الماء البارد في يناير ، والتي تعرض لها لفترات طويلة .

انني اتوجه الى شرفكم ، كشخص مسؤول عن التحقيق مع موكلي، وارجو أن تبحث كل شكاواه الخطيرة تلك دونما ابطاء . واعتقد انه لا حاجة لي الى القول بان هذا الاسلوب الوحشي من الاستجواب ، الذي وصفه موكلي ، هو انتهاك خطير لمبادىء حقوق الانسان وازدراء لكل قانون أو عرف يتعلق بالتحقيق المبني على اشتباه من البوليس لا نفع فيه .. واني في انتظار جوابك في أسرع وقت .. المخلصة : فيليسيا لانجر » .

وبالطبع ـ كما تقول الوثيقة ـ فان فيليسيا لانجر لم تتلق اي جواب على خطابها هذا ، ولم يبادر البوليس باجراء أي تحقيق في الوقائع التي وردت فيه .. وفي ٢ فبراير ١٩٧٣ نشرت تقريرا اخر في صحيفة (هآرتس) عن الاسلوب الذي تعرض له رامي ليفنه في الاستجواب يؤكد ان كل ما ورد في شكاوى شوقي الخطيب صحيح .. وفي كتيب شوقي الخطيب وثائق واحداث اخرى كنت ارجو ان يتسع المجال لترجمتها كلها للقارىء العربي .. وأهمها الوقائع التي ادين وفقا لها في المحكمة المضحكة التي اعتمدت كلية على شهادة البوليس وعلى اعترافات اخذت من شوقي الخطيب تحت وطأة التعذيب .. ومع انه نبه قضاته الى ان هذه الاعترافات لا اساس لها من الصحة وانها انتزعت تحت وطأة تعذيب وحشي وصفته محاميته في خطابات ووثائق عديدة كان الخطاب الذي ترجمناه قبل سطور واحدا منها ، الا ان القضاة لم يعيروا احتجاجه التفاتا وحكموا عليه بالسجن لمدة عشر سنوات .. مؤكدين ان موقفهم من القانون لا يختلف عن موقف المحقق البوليسي الذي سحق ورقة بين يديه والقاها في سلة المهملات وهو يقول : « هذا هو القانون بالنسبة لي » .

اقول كنت ارجو ان يتسع المجال لترجمة بقية وثائق هذا الكتيب الهام ، خاصة وان ثمة ملاحق به عن حالات اخرى .. ولكن ما ارجو ان نتنبه له اكثر هو ان نعمل على ان تصل الحقائق التي يحتويها هذا الكتيب وغيره الى أوسع قاعدة من القراء الغربيين .. لانهم في حاجة ماسة الى ان يعرفوا الجانب الآخر من الحقيقة . صحيح ان معرفتنا نحن العرب ببعض تفاصيل الثمن الفادح الذي يدفعه الفلسطيني من أجل بلاده تثير في أعماقنا الرغبة في التضحية والامل بالنصر ، لكن معرفة الرأي العام الغربي بهذه التضحيات اهم من ذلك بكثير .. لانها ستحطم خرافة المثال الاسرائيلي الناصع البياض والذي عملت الدعاية الصهيونية في أوروبا على ترسيخه وكانه الحقيقة الوحيدة .. كما انها سوف تحثه على ان يعمل شيئا من اجل العرب بعد طول انحياز للجانب الاسرائيلي عرفت الصهيونية كيف تستغله وتستفيد منه .

الفيلم :

ان الحقيقة الفلسطينية تنعكس هذه المرة على مرايا يهودية ، ولكنها غير صهيونية في هذا الفيلم الوثائقي الشهادة (ان تعيش في حرية) والذي أعدته مجموعة من الفنانين الاسرائيليين اليساريين مع يهودية انكليزية يسارية وزنجي من جنوب افريقيا . ومع ان الفيلم ذاتي ، بمعنى انه اسرائيلي ، مهما كان حرصه على ان يقترب من الموضوعية ، وان يردد نغمة مغايرة اشد التغاير لتلك النغمة المكرورة الصهيونية المتغطرسة ، فانه برغم ذاتيته تلك ، وبرغم ما به من وجهات

نظر لا نوافق عليها ، يعد نقطة هامة على منحنى الرؤية اليهودية ، ينبغي العمل على تاييدها وتشجيعها على أن تصل الى أسماع العالم . فاهمية هذه الشهادة والرؤية التي يعرضها الفيلم تكمن في انها خارجة من قلب اسرائيل ، وانها تنطوي على معلومات مستقاة من مصادر أولية ومباشرة ، وعلى مشاهد وثائقية مصورة أقوى من اي محاولة صهيونية لطمس الحقيقة .

ومنذ العنوان الساخر (أن تعيش في حرية) يبدو وعي أصحاب الفيلم بضرورة أن يفيق الجمهور الاوروبي من اثر هذا التنويم الطويل الذي لقن خلاله مجموعة من الاوهام عن المجتمع الاسرائيلي .. ومن أول هذه الاوهام وأضخمها وهم الحرية .. فقد ظل راسخا في ذهن العالم الخارجي لفترات طويلة ان اسرائيل هي « واحة الديمقراطية في الشرق الاوسط » !! والفيلم يحاول منذ الوهلة الاولى أن ينقض هذا الوهم ، وأن يعرض على المتفرج صورا من هذه الحرية ، وان ينبهه الى حقيقة صغيرة ، وهي هل باستطاعة الانسان ان يعيش في حرية في مجتمع يعيش على الاستغلال والمقت والكراهية ؟.. هل باستطاعته ان يعيش في حرية في مجتمع مبني اصلا على التعصب الديني والتفرقة العنصرية ؟.. هل باستطاعته أن يتمتع بحريته في مجتمع تسيطر عليه مؤسسة عسكرية ذات طبيعة فاشية ؟!.. وعلى فرض ان بعض افراد هذا المجتمع يعيشون في حرية .. فمن تراه يدفع الثمن الفادح للحرية التي يتمتع بها هذا البعض ؟!.. هذه هي بعض التساؤلات التي يطرحها الفيلم ، والتي يجيب على بعضها ، ويكتفي بانه اثار ببعضها الآخر الشك حول كثير من المسلمات السادرة. وعلى الصعيد النظري فان الفيلم يرى ان حل الصراع الذي لا يزال قائما بين العرب واسرائيل هو باقامة دولة ديموقراطية علمانية غير عنصرية في فلسطين يعيش فيها العرب الفلسطينيون واليهود تحت ظل مجتمع علماني يمنحهم معا حقوقا عادلة متساوية .. وهو الحل الذي تنادي به كثير من منظمات المقاومة الفلسطينية .. فكيف وصل الفيلم الى هذا الحل ؟

يعرض الفيلم من البداية لمحة تاريخية عن أصول المسالة اليهودية ، وعن الوضع الذي وجد فيه اليهود انفسهم ابان الحرب العالمية الثانية ، وعن ظروف وملابسات الدعوة الى اقامة الدولة اليهودية في فلسطين ، وعن الوسائل التي تحولت بها هذه الدعوة الى واقع تجسد في قيام الدولة الصهيونية .. ويهتم الفيلم بابراز التناقض بين الدولة الحلم ثم الدولة الواقع .. جاء اليهود من كل مكان متوهمين ان الرب قد وهبهم بعد طول صلاة مكانا يجدون فيه الامن والسعادة .. ودفع كل من العرب واليهود ثمن هذا الوهم .. فها هم الفلسطينيون يفقدون وطنهم وأرضهم .. وها هم اليهود الذين يظنون انهم جاءوا الى أرض الميعاد يجدون انفسهم في ظروف من العوز والاضطهاد لم يتعرضوا لها في المجتمعات التي هاجروا منها ابدا .

واذا كان ثمة الكثير من نقاط النقد والاختلاف في العرض التاريخي الذي قدمه الفيلم .. والذي جافى فيه بعض الحقائق الواضحة التي يعترف بها غلاة الصهاينة أنفسهم مثل حقيقة ان اسرائيل هي التي بدأت حرب يونيو ١٩٦٧ وليس العرب .. اذ يدعي الفيلم بصفاقة ان مصر هي التي بدأت هذه الحرب الاستعمارية التي خطط لها في اميركا أصلا .. الا ان الجزء الشجاع والذي يحظى بالتقدير هو المقابلات الوثائقية التي أجراها الفيلم عن الوضع في الاراضي التي احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧ . ففي هذا الجزء يقدم الفيلم بصورة غير مباشرة ما ينقض زعمه بان مصر هي التي بدأت الحرب . حيث تتعرف فيه على رغبة اسرائيل الدفينة في التوسع ، وعلى نوعية الاستعمار الاستيطاني الذي تريد أن تفرضه على المنطقة .. وعلى الاشكال البشعة من الاستغلال .. وعلى المنطق الجائر والمشوه للعدالة اليهودية ..

والفيلم يركز على فئتين اجتماعيتين ليقدم لنا من خلال استعراضه لحياتهم ومقابلته لبعض نماذج واقعية منهم كل هذه المقولات .. هاتان الفئتان هما الفلاحون الفلسطينيون في الضفة الغربية المحتلة من نهر الاردن وفي قطاع غزة .. واليهود الشرقيون الذين هاجروا الى اسرائيل والذين يتمتعون بحق المواطنة الاسرائيلية ولكنهم في الواقع مواطنون من الدرجة الثالثة ان لم يكن من الدرجة العاشرة ... ومن خلال مقابلات مع فلاحي الضفة الغربية وقطاع غزة .. ثم عرض لجزئيات من الوقائع المصورة والاحداث تؤكد ما يقوله هؤلاء الفلاحون في مقابلاتهم .. نتعرف على أبشع صور انتهاك الحق الانساني .. فاسرائيل قد استولت بالقوة على منازلهم ومزارعهم التي هي من أخصب الاراضي في المنطقة دونما اي حق وبلا حتى أدنى تعويض .. وحاولت ان تجبرهم على ترك بلادهم والنزوح منها بشتى الطرق ... ويلخص عدد كبير من هؤلاء الفلاحين القضية في بساطة متناهية عندما يقولون انهم عانوا من ويلات الاحتلال الانكليزي ، ولكنهم لم يشهدوا اكثر وحشية ولامنطقية من الحكم الاسرائيلي .. انهم يقولون انهم مواطنون مسالمون يريدون الحياة في أرضهم وزراعتها والعيش من خيرها كما عاش آباؤهم الاف السنين .. وهم مستعدون حتى لان يدفعوا الضرائب للمحتل ما دام هذا هو قدرهم الغاشم .. لكن المستعمر الاسرائيلي لا يريد ذلك .. انه يريد تشريدهم وانتزاع أرضهم بالقوة وتحويلها الى مستعمرات عسكرية يهيؤها لايواء المهاجرين الذين يقيم الرأي العام الغربي ويقعده حتى يضغط على الاتحاد السوفياتي ويسمح لهم بالهجرة منه الى اسرائيل .

ويعرض الفيلم صورا متعددة لهدم بيوت العرب ونسفها ، والاستيلاء على أراضيهم بالقوة ، واستنزاف قوة عملهم بعد ذلك وقد أحالهم الى أجراء معدمين ، ويؤكد من خلال هذه الصور أمرين أساسيين : أولهما ان الوهم الذي بنت عليه الصهيونية دعوتها الى اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، على أساس ان فلسطين ـ كما قال هرتزل ـ وطن بلا سكان وان اليهود شعب بلا وطن ، وهم خاطىء من أساسه .. وان كل يهودي يهاجر الى اسرائيل يبني بيته هناك فوق أشلاء الضحايا العرب الذين تذبحهم المؤسسة العسكرية الحاكمة قربانا للمهاجر الجديد .. وثانيهما ان هؤلاء العرب الذين يطردون من بلادهم قد عاشوا فيها منذ آلاف السنين .. وان جذورهم تمتد في ترابها الى عشرات الاجيال .. وان ما يتعرضون له هو أقسى حلقة في سلسلة طويلة من القهر والاستغلال . وهذا يعني ان الحركة الصهيونية باعتبارها استعمارا استيطانيا ، هي اعلى واشرس مراحل الاستعمار التي عرفتها البشرية منذ بداية الصفحات الدامية في كتاب الاستعمار الطويل .

الفئة الثانية التي يركز عليها الفيلم ليقدم صورته الواقعية لوهم الحرية الذي يعيش فيه الاسرائيليون هي فئة المواطنين الاسرائيليين من الدرجة الثالثة .. وهم اساسا العرب الذين بقوا في فلسطين برغم عسف الصهيونية وارهابها ، واليهود الشرقيون الذين هاجروا من البلاد العربية الى اسرائيل .. هنا نتيقن مرة اخرى اننا امام مجتمع فاشي فالمقابلة الطويلة التي يقدمها الفيلم مع فوزي الاسمر الشاعر الفلسطيني الذي عانى الكثير لمجرد رغبته في الحياة في وطنه .. تقدم لنا الوانا من صور الحرمان من الحرية التي يتعرض لها قطاع كبير من هؤلاء الذين يتمتعون بحق المواطنة الاسرائيلي . فالاراء التي يقدمها فوزي الاسمر في شعره ، ويتبناها في احاديثه وكتاباته النثرية ليس فيها اي تطرف .. ولكن مجرد رغبته الصادقة في الحياة داخل وطنه هي بالنسبة للمؤسسة الحاكمة في اسرائيل قمة التطرف . اما بالنسبة لليهود الشرقيين فان الفيلم يقرر انهم يعيشون في اسرائيل حياة مواطن الدرجة الثالثة .. يستغلون وينهبون ويحرمون من كل الميزات التي يحظى بها اليهود

ـ التتمة على الصفحة ٥٤ ـ

القضية الفلسطينية في كتاب ومجلة جنسية

تابع المنشور على الصفحة ـ ١٣ ـ

الغربيون ،او بالاحرى فئة خاصة من هؤلاء اليهود الغربيين . ذلك لان الفيلم يشير من خلال صور دامغة لمنازل من الصفيح ولحياة دون المستوى البشري ، بينما يحظى الاخرون ،في دولة تدعي بانها تنتمي الى الاشتراكية الدولية ، بقصور ذات حمامات للسباحة .. يشير الفيلم من خلال هذه الصور الى ان المهاجرين القادمين من الاتحاد السوفيتي يحظون بهذه المعاملة ويعيشون هذه الحياة الفظة في اكشاك الصفيح ككثير من اليهود الشرقيين . ان هؤلاء الذين تركوا بلادهم سعيا وراء وهم الارض الموعودة ، او فردوس الحرية والمساواة لليهود ، يجدون انفسهم يحيون حياة لم تداعب خيالهم في اقسى الكوابيس . ويفقد بعضهم حتى حرية العودة الى حيث اتى ، ويتحمل البعض عذاب الاختيار الاحمق الذي دفع به الى التخلي عن وطنه من اجل حلم زائف وغير يقيني .

ويكشف الفيلم بوضوح ووعي عن السبب الرئيسي في هذا المستوى الحشري للحياة الذي يعيشه اليهود الشرقيون والمهاجرون الجدد الذين يحاول الجميع محاصرة صرخاتهم التحذيرية ومنعها من الوصول الى الذين لم يهاجروا بعد . يكشف عن ذلك من خلال التحليل الطبقي الوثائقي المصور للمجتمع الاسرائيلي .. فالقاعدة الاساسية في هذا المجتمع هي الاستغلال .. ومع ان المجتمع نفسه ينهض على اساس عرقي وعنصري ـ الا ان الاستغلال باعتباره القاعدة الاقتصادية الاكثر صلابة قد يعمل في بعض الاحيان ضد الاساس العرقي للمجتمع .. هذه المفارقة الحادة يقدمها الفيلم من خلال صورتين بالغتي الدلالة .. اولهما صورة الرأسماليين الاسرائيليين وقد هرعوا بعد حرب ١٩٦٧ الى استغلال قوة العمل العربية في المناطق التي وقعت تحت السيطرة الاسرائيلية . لم يهمهم ان ذلك يتم على حساب قوة العمل الاسرائيلية ، ما دامت قوة العملالعربية التي حرمت من مصادر دخلها بالاستيلاء على ارضها او هدم مؤسساتها الاقتصادية ،هي الارخص عند الدفع .. ففي اسرائيل ثمة قانون ينظم الحد الادنى للاجور ويحاول حماية العمال شريطة ان يكونوا اعضاء في (الهستدروت) . والعمال العرب الذين وجدهم الرأسمالي الاسرائيلي فجاة في متناول يديه ليسوا بالطبع اعضاء في (الهستدروت) ومن ثم يستطيع ان يدفع لهم اجورا اقل من الحد الادنى بكثير . وفي بلد صغير مثلفلسطين المحتلة فان فرص العمل محدودة .. واعطاء عمل بهذه الاجور المنخفضة للعمال العرب يتم دائما على حساب عمال يهود اخرين .. لكن الرأسمال المستغل يجد نفسه ازاء اغراءات الربح يسلك ضد القواعد العرقية التي ينهض عليها المجتمع الاسرائيلي ، ولكنه لا يعبأ بهذا التناقض .. ويتحقق بعض اليهود ، او قوة العمل اليهودية بالاخرى ، ان الانتصارات وتوسعات المؤسسة العسكرية الصهيونية ليست مبتهجة كلها كما تصورها الدعاية الصهيونية ، بل انها تحمل البطالة والعوز الى بعض الدور اليهودية .

الصورة الثانية التي يجسد عبرها عنف التناقضات الطبقية تتبلور في مفارقة ساخرة تكشف عن طبقية العدالة الاسرائيلية . فالمفروض ان معظم قوة العمل العربية التي جردتها اسرائيل من مصادر دخلها ليس لها حق العمل في المناطق المحتلة قبل عام١٩٤٨، ولكنها بحكم قوة قانون الاستغلال الراسمالي تعمل في هذهالمناطق، وبالمناسبة فالاعمال التي تترك لها اقسى واشق الاعمال البدنية .ومن ثم فان اصحاب العمل يذهبون الى مناطق تجمع هؤلاء العمال ويتفقون معهم على العمل .. ومع ان المساومة كلها عملية غيرقانونية فان البوليس عندما يأتي يقبض على العمال ويتيح لصاحب العمل فرصة الهرب في سيارته الفارهة . ومع ان سيارة البوليس يمكن ان تطارد صاحب العمل وقد هرب في سيارته .. لكنها لا تفعل وتهتم بالتحقيق مع هؤلاء العمال الذين يقفون في جماعات واماكن ممنوعة، تحت ظل الحكم العسكري يمكن اعتبار كل تجمع خطر ، وكل مكان ممنوع الوقوف به . ويطارد البوليس العمال ويحقق معهم .. ليست جريمتهم في الواقع انهم يعملون حيث ممنوع عليهم العمل ، او انهم يسعون للحصول على عمل حيث محرم عليهم هذا السعي ، فلو كانت هذه هي جريمتهم ، لوقع صاحب العمل الصهيوني هو الاخر معهم تحت طائلة العقاب .. ولكن جريمتهم في الواقع انهم لا يزالون برغم كل العسف الصهيوني صامدين احياء .. لم يتخلوا عن بلادهم بعد برغم انتزاع كل شيء منهم .. لم يتركوا البلاد ويرحلوا .. بل لا يزالون يقاومون ويتشبثون بتراب الوطن .

بقيت نقطة هامة يثيرها هذا الفيلم عن طبيعة ووظيفة المؤسسة العسكرية الصهيونية الحاكمة في اسرائيل . وعن طبيعة التربية ذات الطابع الفاشستي التي تتبعها هذه المؤسسة في تنشئة جنودها . هذه التنشئة التي يستخدم فيها حائط المبكى ونجمة داود غطاء لنوع من التربية النازية الجديدة . حيث تستخدم رموز دينية، وجزئيات من اساطير عرقية ، واوهام عن جيش قوي لا يقهر ،وطقوس وثنية تستخدم فيها النيران .. وغير ذلك من الخلط الغريب الذي يذكرنا بالخليط الفكري الذي استخدمته النازية في تاسيس مؤسستها العسكرية .

واخيرا ، وبرغم اهمية هذا الفيلم كوثيقة شبه موضوعيةتخرج من اسرائيل وتعرض لاول مرة جانبا من الصورة لم يتح لاحد ان يراه ويسمعه من صوت اسرائيلي من قبل . فان هناك بعض نقاط النقد على هذا الفيلم بالاضافة الى وقوعه تحت سطوةبعض المغالطات الصهيونية ، كتلك التي اشرت لها عند الحديث عن الذي بدا حرب يونيو ١٩٦٧ . فان الفيلم لم يركز على مسالة الهجرة الىاسرائيل بقدر ،سلائم . يتحول معه علاج هذه المسالة الحيوية فيه الى صرخة تحذير لمن تسول له نفسه الهجرة من جديد الى اسرائيل . خاصة وان مسالة الهجرة هذه ليست واحدة من اكثر النقاط تشويها في الدعاية الاسرائيلية والصهيونية ، بل انها ايضا حجر الاساس في الفكر الصهيوني . وهناك الكثير من الحقائق المطموسة والمشوهة حول هذه المسالة ، خاصة والحملة الان من اجل اجبار الاتحاد السوفييتي عبر مختلف الضغوط على تهجير اليهود السوفييت الى اسرائيل . اما النقطة الثانية فهي ان الفيلم برغم ذكره في بداية العرض التاريخي ان اليهود قد عاشوا في البلاد العربية وقبل تاسيس دولة اسرائيل في ظل تسامح ومساواة لم يعرفوها في اي من البلاد الاخرى . لم يضع هذه الحقيقة في مجال المقارنة بالوضع الغريب الذي وجد اليهود الشرقيون فيه انفسهم في اسرائيل .. بل ذكر الحقيقتين متباعدتين وكان لا صلة بينهما . وكان ذكر التسامح العربي مع اليهود في مواجهة التمييز الذي يجد اليهود الشرقيون معه انفسهم مواطنين من الدرجة الثالثة في دولة اسرائيل ، يساهم بشكل اوضح في ابراز حدة المفارقة وفي هدم الكثير من الافكار الدعائية الخاطئة التي تنهض عليها الفكرة الصهيونية . كما انه يساهم في نفي الكثير من الافكار الخاطئة عن ان العرب ينطوون على عداء تقليدي لليهود ، وهو الذي يدفعهم الى محاربة اسرائيل ، بينما الواقع ان الصهيونية هي التي انشات هذا العداء حيث لم يكن له قبل قيام الدولة الصهيونية اي وجود .

مجلة جنسية

اخيرا يأتي دور اطرف واغرب المعالجات التي تناولناها جميعا وهي تناول مجلة (بلاي بوي) الشهيرة للقضية في عددها الرابع من هذا العام .. فحينما رايت على غلاف المجلة ، وجنبا الى جنب

مع الصورة المثيرة العارية التي تستلقى على صفحة الغلاف .. مع اهم العناوين المثيرة لمحتويات العدد ، هذا العنوان المثير ايضا (الحياة والموت في اسرائيل ومصر) اندهشت جدا .. ولما تصفحت العدد ووجدت ان به موضوعين عن اسرائيل ومصر يشغلان اكثر من عشرين صفحة من صفحات المجلة .. قلت فلادفع نصف جنيه استرليني ـ ثمن طبعة شعبية من كتاب محترم ـ في عدد «مجلة (البلاي بوي) وامري للـه .. فعشرين صفحة في مجلة (بلاي بوي) التي تخاطب المراهقين الغربيين بعدة لغات ، وهم كثيرون ، ليست امرا هينا. ويستحق من انسان مهموم بالصراع العربي الاسرائيلي مثلي ان يلقي عليها نظرة ولو من باب العلم بالشيء .. فكيف يا ترى قدمت مجلة (بلاي بوي) لقرائها الكثيرين حقائق الصراع العربي الاسرائيلي .. ؟ ولماذا افردت اكثر من عشرين صفحة من صفحاتها الانيقة الغاليـة التكاليف لقضية من هذا النوع وهي التي اعتادت ان توجه كل صفحاتها لدغدغة رغبات القراء الجنسية ؟! .. حتى نجيب على هذا التساؤل علينا ان نعرف اولا ماذا قدمت المجلة في هذه الصفحات.

من الوهلة الاولى تحاول المجلة ان تعطي لقارئها انطباعا زائفا بانها تنحو منحى موضوعيا في معالجة مثل هذا الموضوع الشائك.. اذ تتناوله في دراستين منفصلتين ، احداهما بعنوان (ضريبة الدم في وقت الحصاد) بقلم هربرت جولد تتناول الجانب الاسرائيلي ثم تليها دراسة اخرى بعنوان (الانبعاث) بقلم مارشال فريدي تتحدث عن الجانب المصري .. وقد خصت المجلة امعانا منها في هذه العدالة الموضوعية احدى عشرة صفحة ـ كاملة لم نعد معها الاعلانات او النكات او الصور العارية ـ للدراسة او المقالة التي تتحدث عما جرى على الجانب الاسرائيلي اثناء وبعد حرب اكتوبر ١٩٧٣، وتسع صفحات كاملة ايضا لما حدث على الجانب المصري .. ومن البداية ، وقبل ان نحلل ونلخص ما دار في كل دراسة على حدة احب ان اشير الى ان الوضع الذي قدمت به المجلة هذا التناول المطول للنزاع العربي الاسرائيلي ، والذي حاولت من البداية ان توحي بموضوعية موقفها منه ينطوي على مغالطة جذرية وهي ان الصراع ليس صراعا مصريا اسرائيليا بقدر ما هو صراع عربي وفلسطيني اسرائيلي . فالمجلة تريد ان تقدم لقارئها الموقف على انه صراع بين دولتين في منطقة واحدة هما مصر واسرائيل ـ تضعهما على قدم المساواة ـ ناهيك عن تحيزها الواضح في المعالجة والذي سيتكشف بعد قليل . وتسقط من حسابها تماما وجود شيء اسمه فلسطين او الفلسطينيون ، او وجود عالم عربي له قومية واحدة ومصير واحد زرعت في وسطه هذه الشوكة الاسرائيلية الاستعمارية لتمنعه من الوحدة والقوة . ولتساعد القوى الاستعمارية على تمكين نفوذها فيه .. لكن قبل ان نستطرد في تحليل الموقف الحقيقي للمجلة من الصراع العربي الفلسطيني ـ دون ان ننسى بالطبع انها «مجلة امريكية ـ علينا ان نقدم للقارىء اولا نوعا من الملخص التحليلي لما قدمته في الدراستين ، او بالاحرى قراءة عربية لهاتين الدراستين قبل ان نتحدث اليه عن بعض ما تنطوي عليهما هاتان الدراستان من رؤية زائفة وخبيثة للقضية الفلسطينية والعربية عامة . وسابدأ بالدراسة العربية مع ان المجلة قدمت الدراسة الاسرائيلية اولا.. آسف لانني قلت العربية فهي ليست كذلك ، وليست حتى مصرية ولكنها دراسة امريكية الرؤية عن مصر ـ او عن ما تتوهم امريكا انه العدو السابق لسياستها في المنطقة ..

يبدأ المقال بتصوير العبور على لسان الجندي الاسرائيلي الذي بعث باشارة لاسلكية الى قادته من خط بارليف يقول فيها ، الاف منهم يسبحون نحونا .. يا الهي .. كما لو انهم الصينيون قد قدموا عابرين الينا » .. لكن هذه الاشارة المتعاطفة معنا لا تخفي انحياز الكاتب الى الرؤية والتفسير الاستعماري والصهيوني للاحداث .. وان كان التقاطه لبعض الاحداث والجزئيات التي عاشها ابان زيارته لمصر بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ تعكس بعض الجوانب الموضوعية للحقيقة ، وخاصة فيما يتعلق بالموقف من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي كما تمثله مختلف وجهات نظر الطبقات المتباينة في المجتمع المصري .

ومن هذه المواقف التي تعكس بعض جزئيات الموقف الاجتماعي من امريكا .. حديثه عن سائق التاكسي الذي اقله من المطار الى الفندق .. فحينما سأله عن جنسيته واجاب انه امريكي .. قال له « لو عرفت انك امريكي لما اخذتك معي ولما سمحت لك ان تركب تاكسي .. فكل الامريكيين رديئون . رديئون جدا .. انهم يساعدون اسرائيل لكي تقتل المصريين ، ان روسيا تبيع لنا السلاح ونحن ندفع لكن كل هذا لنا .. هذه ارضنا وهذه اشياؤنا .. اما الامريكيون، فانا اقول لك انهم قتلوا اخي واختي في السويس عام٦٧ بطائراتهم الفانتوم .. لو عرفت انك امريكي قبل ان تركب لما اخذتك معي ابدا » .. ولما توقف التاكسي في اشارة المرور ، حيا السائق احد جنود المرور وتحدث معه وفي نهاية الحديث استدار سائق التاكسي وقال له « اترى انه هو الاخر يوافقني على ان الامريكيين رديئون جدا وشريرون » .. لكن عندما تحرك هذا الصحفي الامريكي الى عالم اجتماعي اخر .. حيث يعرف مواطنا من الذين كان يتجاوز دخلهم في العام ٢ مليون دولار قبل عبدالناصر يقال له فوزي ومعه مجموعة اخرى من اعضاء نادي الجزيرة .. وحكى لهم قصته مع سائق التاكسي وعسكري المرور .. اعتذروا له بشدة .. وقال له احدهم .. « ان ذلك محض هراء .. هل اخذت اسمه او رقم سيارته .. لا اهمية لمسألة اخيه او اخته..ان ذلك شنيع وغير متسامح » .. اوه ياروح البوليس القذرة في ما يسمونه بعصر الحريات !. ويقدم لنا الكاتب تنويعا اخر عن نفس النغمة حينما يقول له مواطن قاهري مرموق ـ حسب تعبير الكاتب ـ في معرض الدفاع عن تدله المصريين في هوى امريكا « ان المسألة مثل ان تعشق فتاة ولكنها كل مرة تعاملك بطريقة سيئة مرة ومرة ومرات .. وتقول لك اذهب الى الجحيم .. بعد فترة فانك ترغب في ان تقول لها نفس الشيء .. ترى ماذا حدث لامريكا ؟.. الم تتيقن بان هناك ١٠٠ مليون عربي يموتون رغبة في الارتباط بها والالتحاق بالغرب ؟ .. بحق الجحيم اي شيء مشترك بيننا وبين الروس .. هؤلاء البطاطس الشيوعية ؟! احب ان اقول لك ان هذا هو اجن زواج في التاريخ .. لكن اي اختيار لعين دفعتنا اليه امريكا ؟ » .. هذا ما يقوله له المواطن القاهري المرموق جدا وهو يدافع باسم مائة مليون عربي عن امريكا .. لكن الكاتب يقدم لنا جزئية واقعية اخرى تشككنا في حديث هذا المواطن المرموق ـ.. فعندما توجه الى خط بارليف في سيارة جيب مصرية كان هناك جندي مصري يجلس في المقعد الامامي ومعه سلاحه الاوتوماتيكي .. وعندما سأله عن جنسية سلاحه اجاب « انه سلاح روسي .. انه الافضل » ولما توغلت بهم السيارة قليلا في داخل منطقة ٢/٣ ١ ٪ من جزيرة سيناء الذي عاد الى السيطرة المصرية (*) المحدودة شاهد حطام الطائرات الامريكية الصنع ، وعلى ذيل طائرة (سكاي هوك) محطمة .. والى جانب نجمة داود الاسرائيلية كانت هناك العلامة التجارية التي تقول « شركة دوجلاس لصناعة الطائرات .. لونج بيتش . كاليفورنيا » .. فهل كان هذا دليلا في جانب سائق التاكسي وعسكري المرور ضد المواطن القاهري المرموق .. حيث السلاح الحي في اليد المصرية روسي وحيث الحطام العدو الميت فوق رمال سيناء امريكي الصنع ..

(*) يقدر الشريط الذي تتناوله اتفاقية فصل القوات على الجبهة المصرية بـ ٥ ٪ فقط من مساحة سيناء .. مقسمة الى ثلاثة شرائط طولية متساوية احدها للقوات المصرية المحدودة والاخر لقوات الامم المتحدة والثالث لقوات اسرائيل المحدودة اما بقية الـ ٩٥ ٪ من مساحة سيناء فلا تزال تحت الاحتلال الكامل .

لكن الكاتب لا يتركنا طويلا عند هذا الجانب من الحقيقة .. بل يتحرك بنا مرة اخرى في سهرات الارستوقراطية ، ويستدعي لنا ذكرياته عن حفلات (مرضعة فلاون) كما يسميها الشيخ امام.. هذه الحفلات التي تعطي المواطن (فوزي) احساسا حقيقيا بانه عربي كما يقول « ذلك معنى ان تكون عربيا .. انني احس بانني عربي مثلما احس عندما استمع اليها تغني . ان ذلك مثل ان ترتد الى الكنيسة بعد غياب طويل عنها » فيا له من مفهوم طريف عن العروبة التي يستشعرها الانسان في حفلات ام كلثوم .. عروبة التذكرة ذات العشرة جنيهات .. لا عروبة الامل المشترك والنضال المشترك .. فهذا المواطن المبجل فوزي الذي عاش على هامش المجتمع طوال السنوات العشرين الماضية والذي يتمسك بعنف بلحظة الانبعاث لم يشعر بعروبته اثناء المعركة ، ولكنه وجدها في حفلات ام كلثوم ..

وبنفس الطريقة الامريكية في تجميع الجزئيات المتعارضة وذات الدلالة يجمع لنا الصحفي الامريكي في مقاله الطويل ذاك مجموعة اخرى من الجزئيات .. ما قاله له البعض في امريكا عندما اندلعت حرب ١٩٧٣ من ان العرب قد جنوا ،وانهم بذلك يوجهون دعوة الى الدمار الكامل لبلادهم .. كان ذلك في اليوم الثاني من اندلاع الحرب .. ولما توالت الايام وتبين ان الدمار الكامل يقترب من اسرائيل وليس من العرب بدأت امريكا تمد اسرائيل بعصا موسى التي قد تنقذها من اليم .. بعد ان تكسرت كل عصيها السابقة على صخرة التيكنولوجيا الروسية في يد الانسان العربي المثقف المتطلع الى تحرير بلاده من كل سيطرة استعمارية .. فبهذه الامكانيات الامريكية وحدها امكن للمؤسسة العسكرية الصهيونية ان تتجنب الانهيار ، وامكن لها ان تعوق الانسان العربي ، مؤقتا .. واشد على مؤقتا عن تحرير ارضه واسترداد حقه في وطنه .. وهذه الحقيقة التي يذكرها الكاتب بسرعة اصبحت الان شيئا معروفا في الغرب يدرس الجميع كل تفاصيله .. وهو ان اسرائيل بالفعل كانت على حافة الانهيار، وان العرب ايضا كانوا على حافة الاستعادة الكاملة لحقوقهم .. لولا ان اندفعت امريكا بكل ثقلها تؤيد اسرائيل في الاحتفاظ بالارض التي احتلتها ، وتمنع العرب من استرداد حقوقهم .

اما المقال الاسرائيلي فهو بالفعل اسرائيلي تماما .. كتبه يهودي امريكي .. آسف صهيوني امريكي .. هاجرت ابنته الى اسرائيل .. وكان جزعه على اسرائيل وقت الحرب جزعا على فلذة كبده حقيقة لا مجازا .. والمقال بعنوان (ضريبة الدم في وقت الحصاد) بقلم هربرت جولد .. والكاتب يبدأ مقاله بالاعتراف بانه يهودي،وصهيوني ايضا .. بمعنى انه توافق توقا شديدا لانه يموت ويحيا من اجل اسرائيل .. وانه اكتشف نفسه عندما اكتشف القدس .. وانه سافر في العام الماضي الى اسرائيل ثلاث مرات .. كانت الاولى لكي يكتب ـ كما يقول ـ عن حياة اليهود الروس الذين هاجروا الى اسرائيل بعد احتجازهم ٥٠ عاما خلف الاسوار السوفييتية التي لانت اخيرا للضغط الامريكي . وكانت الثانية في الخمسطس لكي يحضر مؤتمرا دوليا في القدس للكتاب والفنانين حيث كانت اسرائيل على حد تعبيره تغلي بالامل والفرح، وحيث كانما يعده العالم الخارجي خطرا مجرد تحد جديد لهؤلاء الناس الذين يحسون بان الصحة في الخطر .. اما الثالثة فكانت في اكتوبر ـ لا حيث عاش ممارسة هؤلاء الناس صحتهم وقت الخطر كما قال قبل سطور ـ بل حيث الاظلام والحرب والارهاق على الوجوه التي عراها الشحوب .. ومن البداية يصف لنا هربرت جولد المشهد على الجانب الامريكي ، وكيف احتشد الاف الاسرائيليين والامريكيين في طوابير طويلة انتظارا لحجز مكان على كل الطائرات المسافرة كاملة العدد اثناء بدايات الحرب الى اسرائيل. وكيف ان بعض المودعين ، وقد امتلأوا بوهم الاقتدار الاسرائيلي الكاذب يقولون لمن يسافرون للالتحاق بالجيش « انهوها بسرعة ثم عودوا الينا مع بداية الاسبوع القادم » فالحرب مع العرب في نظر هؤلاء الامريكيين مثل غزوة امريكية على اكواخ الهنود الحمر ، ينجزها (الشجيع) بسرعة ويعود واثقا من النصر .. نفس النغمة الامريكية التي قالت ان العرب وجهوا دعوة سافرة للدمار ببدئهم هذه الحرب. ويصف لنا الكاتب كيف ان الطوابير كانت تمتد لمدة خمسة ايام في المطارات الامريكية المختلفة . وكيف ان معظم المسافرين اما طلبة مستدعون الى الانضمام الى وحداتهم او سياح اسرائيليون قطعت عليهم الحرب المتعة بسياحتهم الامريكية ، لتستبدلها في ظنهم بسياحة سريعة اخرى على الجانب العربي يعودون منها باسخى الحصاد . او امريكيون متطوعون ، يقول ان معظمهم اطباء متطوعون لمعالجة الجرحى ، او صحفيون يريدون متابعة الاحداث .. المهم ان الجميع يضمرهم هذا الاحساس ، او قل هذا الوهم بأن المسألة كلها مجرد نزهة الامريكي في ربوع الهنود الحمر .. او هي لعبته المفضلة بهم وعلى حسابهم .. غير ان هذا الاحساس وهذا المشهد كان يعكره صوت نشاز ـ في راي الكاتب .. هذا النشاز الوحيد هو امرأة اسرائيلية تشنج في بكاء مر متواصل .. هي عائدة ،لا لتشارك في هذه النزهة المتوهمة ،بل لتشارك في دفن ابنها الذي قتل في الايام الاولى للحرب ، وقد علمت اليوم ـ كان هذا اليوم الذي يكتب عنه هو ١٠/١٣ لانه يكتب مقاله في صورة يوميات ـ فقط بالرقم الحقيقي للقتلى . ومن هنا فهي الحقيقة الوحيدة وسط مشاعر من الوهم المتواصل ، او هي الارهاص بما سوف يقابله الصحفي الامريكي في رحلته الثالثة المختلفة المذاق الى اسرائيل .. وتمضي الرحلة ، ويعثر الصحفي الصهيوني على مكان الى اسرائيل ، ويسافر مع نفس السيدة الباكية طوال الرحلة والتي وجدت سيارة رسمية تنتظرها على الممر عند باب الطائرة لتأخذها مباشرة لدفن ابنها الذي انتظرت جثته عدة ايام .

وبعد وصف الرحلة يعالج المقال موضوعين اساسيين خلال مجموعة من اليوميات العديدة التي تمتد الى ما بعد وقف اطلاق النار .. الموضوع الاول هو محاولة اعطاء معاناة اسرائيل والصدمة او الضربة القاسية التي تلقتها وجها انسانيا مؤثرا جدا يستدعي عطف العالم ويستدر عواطف القراء .. والثاني اثارة مجموعة رهيبة من المغالطات عن القضية وتقديمها بشكل يوحي بانها الحقائق او البديهيات المسلم بها حول هذا الموضوع .. ولنتحدث اولا عن جهود الكاتب في المجال الاول .. تلك الجهود التي تبدأ منذ عنوان المقال ذاته (ضريبة الدم في وقت الحصاد) .. ففي موسم جني المحصول الرئيسي الذي يعتمد على تصديره الاقتصاد الاسرائيلي وهو البرتقال والموالح المختلفة ، جاءت الحرب تطالب الناس بان يتركوا الحصاد ويدفعوا ضريبة الدم .. هكذا يسميها ، بينما هي في الواقع ضريبة الاغتصاب والعدوان . تلك الضريبة التي لا بد ان تدفعها اسرائيل ما دامت مصرة على احتلال ارضنا ،والتي علينا نحن ان نجبرها على ان تدفعها كل يوم ، لا ان نضع بيننا وبينها قوات الامم المتحدة التي تحمي امنها وتضمن لها البقاء آمنة في اراضينا المحتلة . ويصف الكاتب كيف كانت ضريبة الدم هذه باهظة .. ها هي اسرائيل كلها وقد باتت بلا رجل قادر على العمل ، كل بنيها يقاتلون بالاسلحة الامريكية من اجل ما تسميه المؤسسة العسكرية امن اسرائيل ، وفي الواقع من اجل العدوان والتوسع .. وها هم المتطوعون الامريكيون يتدفقون على اسرائيل لمعاونتها في كل شيء .. ولم يعد في كل اسرائيل سوى الصغار والعجائز والجرحى .. لم تبق حتى سيارة لنقل ما يمكن للصغار جمعه من المحصول .. (يا حرام !) .. والمهاجرون الجدد ينزلون من الطائرات ويتوجهون رأسا الى العمل ، وخاصة الاطباء والممرضات ، لا يجدون حتى فرصة للراحة من طول السفر (يا عيني !) .. والرعب يسيطر على كل شيء ..ويصبح جزءا من الحياة اليومية ،

فهذه فتاة ترفض الزواج الا اذا زودت شقتها بغرفة مضادة للقنابل تحمي اطفالها .. لقد بدا الرعب يدخل الحياة اليومية للاسرائيلي ، وهذا هو دورنا في اي حرب .. ان ننقلها الى هناك ، ان نجهز على الوهم القائل بان اسرائيل هي آمن مكان لليهودي .. بل لا بد ان تكون اخطر مكان عليه ، وان يحس يهود اسرائيل بان لا حياة لهم في ارض الاخرين وان يشعر يهود العالم بان المكان الذي يعيشون فيه آمن بالنسبة لهم من اسرائيل مهما كان هذا المكان وايا كان .. ولهذا السبب نفسه كان احساسي بعظمة العمليات الفدائية الاخيرة للجبهة الشعبية (القيادة العامة) وللديموقراطية .. ويمكن لمن يقيس عنف الرد الاسرائيلي باعتباره دليلا على فداحة الصدمة ان يتيقن من اهمية هذه العمليات الاخيرة ومدى تاثيرها على المجتمع الاسرائيلي نفسه ، وعلى الحركة الصهيونية في العالم الخارجي .. ومن يعيش في الخارج من العرب ويهتم بدراسة منحنيات تطور الواقع العربي على مرايا الخارج يمكنه ان يدرك ايضا طبيعة السعار الذي انتاب الحركة الصهيونية نتيجة لهذه العمليات التي جعلت كل من يرغب في الهجرة الى اسرائيل يفكر مرتين ، وكل من يرغب في الهجرة منها يسارع بحزم حقائبه والهروب باسرع ما يمكن .. وليس ابلغ على تصوير حالة اليأس التي بدات تنتاب الاسرائيلي عقب حرب اكتوبر من قول الشاعر الاسرائيلي («وشي دور) لهذا الكاتب الصهيوني الامريكي .. اننا في وضع ماساوي .. ان علينا ان نخوض حربا كل ستة او سبعة اعوام حتى يتم دمار اسرائيل او تنهار الروح اليهودية .. ان هناك ثلاثة ملايين وضعوا انفسهم في وضع ماساوي الان .. اما استاذ الدراما في الجامعة العبرية (جيرشون شاكيد) فانه يقول له .. ان المهم بعد كل هذا ان يتكلموا معنا وان يعقدوا «معنا سلاما .. فهذا هو المخرج الوحيد لاسرائيل من ازمتها .. فهل يمكن للعرب ان يتنبهوا الى ان عليهم الا يتكلموا مع اسرائيل الان والا يعقدوا معها سلاما .؟ .. حتى لو تيقن بعضهم من العجز الان ، هل بامكانهم ان يكفوا عن المصادرة على المستقبل ، فربما استطاع الجيل القادم ان ينجز «ما لم ينجزوه هم ؟..وهل تنبهوا ان الثمن الذي تعرضه اسرائيل لامنها ستدفعه من ارضنا نحن .وان اسرائيل لو كانت تريد السلام لا التوسع للزم عليها في اي محاولة للسلام ان تقفل باب الهجرة اليها في وجه اي قادم جديد ؟..

من خلال جزئيات عديدة ، وذكر لاسماء شخصيات مجهولة ، وتصوير مفصل لوقائع من المعاناة عديدة ، ولشلل الاقتصاد والحياة الاسرائيلية كلها اثناء التعبئة .. يحاول الكاتب ان يعطي عذاب اسرائيل وجها ملوما يجلب لها العطف والتعاطف . لكن اهم ما ياخذه العربي من هذا الوصف هو الاهمية القصوى لحرب استنزاف طويلة على عدة جبهات تجعل اسرائيل مضطرة الى تعبئة طويلة ينهار بها ومعها المجتمع الاسرائيلي خلال شهور قليلة .. فهل ثمة امل قريب في حرب من هذا النوع بعد مهارة كيسنجر الالعابية ، وبعد لعب الاميركيين النووية التي يريدون ان يهدوها لمصر واسرائيل فيمنع تحت تهديد الرعب النووي اي حرب في المنطقة ويرسخوا اسرائيل فيها للابد ؟!

اما الجانب الاخر في المقال ، وهو جانب المغالطات الرهيبة التي يقدمها الكاتب وكأنها حقائق فهي عديدة ، وبعضها ساذج لدرجة انني لا احتاج الى الرد عليه في العربية ، وان كان لا بد للاعلام العربي والرسمي ان يبذل جهدا للرد عليه في المنابر الغربية حيث تنشر هذه الاكاذيب .. لكن بعضها الاخر حقا يثير الاهتمام .. مثل مغالطة ان اسرائيل منحت العرب السلام والانسحاب الكامل من اراضيهم لكن العرب رفضوا هذا .. ومثل مغالطة ان اليسار العالمي الذي يؤيد الحق العربي يقف «مع شيوخ البترول ، وهذه احدى صور تقديم الحقائق الى العالم الغربي بصورة ساحرة ومشوهة .. ومثل مغالطة ان سبب الحرب في الشرق الاوسط هو ان روسيا تريد بترول العرب .. فمن من قراء مجلة (البلاي بوي) يعرف ان لدى روسيا فائضا بتروليا ضخما .. وان العالم كله ليس كالغرب شديد التعطش الى البترول العربي ومثل مغالطة جولدا مائير حينما قالت له « من يتنكر بيافرا الان » وكان العالم ينسى بعد فترة .. وهذا ما تعتمد عليه اسرائيل .

وفي النهاية بقيت خاطرة تحيرني .. لقد هزمنا بالفعل عام ١٩٦٧ وكان حجم الهزيمة كبيرا .. لكننا بعد هذه الهزيمة اتخذنا موقفا صحيحا من القضية العربية الاسرائيلية ، عندما رفضنا الاستسلام لاسرائيل وعقد اي سلام «معها ، ورفضنا التنازل عن اي شبر من اراضينا .. ورفضنا المساومة على حقوق الشعب الفلسطيني .. وما يحيرني هو اننا وان لم ننتصر انتصارا كاملا على اسرائيل عام ١٩٧٣ بسبب الدعم الامريكي الرهيب لها في ميدان القتال .. فقد وضعنا اقدامنا بالفعل على طريق النصر والحقنا باسرائيل ضررا احست معه بان احتفاظها بارضنا ليس بلا ثمن .. ومع كل ذلك نستعد لنجلس «مع اسرائيل ونسالها ونتفاوض معها .. ونتنازل عن اراضينا او عن جزء منها ونساوم على الحق الفلسطيني .. اقول نستعد لان هذا ما يلوح في الافق الان .. خاصة بعد ان جلسنا بالفعل معها ووقعنا على الصعيد العسكري بعض الاتفاقات .. فهل كان لا بد ان نضحي ونحارب ونوشك ان ننتصر حتى نسلم في بعض ما رفضنا التسليم فيه عقب الهزيمة ؟!.. ولو سامحت الاجيال القادمة جيلنا ، لانه ضعف او فرط او حتى انهزم ، فهل ستغفر له انه صادر على «مستقبلها وعلى قدرتها على استرداد الحقوق العربية السليبة ؟!... وهل وقعت المنطقة العربية تماما في شراك الصهيوني الماكر كيسنجر وفي احبولة الاستعمار الامريكي ؟! .. هذه تساؤلات مؤرقة لا استطيع لها جوابا .. فهل عند احد منكم عليها اجابة شافية ؟

لندن

دراســـــات ادبيـــة

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	بين آدم وحـواء	د . زكي مبـارك
من ادبنا المعـاصر	« «	التكسب بالشعـر	د . جلال الخياط
تجديد رسالة الغفـران	خليل الهنداوي	شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة
الادب المسؤول	رئيف خـوري	سيمون دو بفوار اومشروع الحياة	فرانسيس جانسون
اصوات غاضبة في الادب والنقد	رجاء النقاش	كامو والتمرد	لدولوبيه
وتبقى الكلمـة	صلاح عبدالصبور	بابا همنغـواي	أ . ا . هوتشنر